نهاد شريف زهرة في بستان أدب الخيال العلمي

بقلم دكتور/ حسام الزمبيلي

التقيت بصديقي كاتب مسرح الخيال العلمي الأديب محمد علي عبد الهادي في جنازة أديبنا الكبير الراحل نهاد شريف، وأهداني مفتاحًا لبستان جميل خلاب، على هيئة قرص رقميّ يحوي موسوعتَه لأدب الخيال العلمي. عدت للمنزل وأنا أحمل هذا المفتاح الثمين، أدخلت هذا المفتاح بحرص إلى مخدعه، ودلفت إلى ذلك البستانِ الساحر –بستانُ أدبِ الخيال العلمي- فإذا بلافتة تشيرُ (زهور ونباتات شرقية-الاتجاه يمينًا)، و(للزهورِ الغربية - الاتجاه يسارًا).

كنت في الكثيرِ من أسفاري قد شاهدت واستنشقت عبير تلك الزهور الغربية، فآسرت الاتجاه يمينًا، ولدهشتي وجدتها عامرةً بمختلف أنواع الزهور الخلابة – على عكس ما توقعت- اتسعت عيناي و انتفخ صدري بالهواء، وكأنه يرتشفه لأول مرة، شعورٌ رائعٌ بالفخر يذكرني بذاك الشعور الذي انتابني يومَ ١١ فبراير ٢٠١١ يوم انتصارِ ثورة الشعب المصري.

وفي ذلك الجانب الشرقي من هذا البستان، كان أول ما لمحت وردةً بلدي حمراء في قلبها صورةٌ لتوفيق الحكيم و في أوراقها كُتب رحلة إلى الغد ، وإلى جوارها شاهدت ياسمينتين بيضاوتين الأولى عليها صورةٌ ليوسف السباعي وفي أوراقها لمحت عبارة لست وحدك ، والثانية عليها صورةٌ ليوسف إدريس وفي أوراقها لمحت عبارة الجنس الثالث. سِرتُ خطواتِ قليلةً فشاهدت زُنبقةً سوداء تقبع وحيدة في ركنٍ خاص وفي قلبها صورة مصطفى محمود وفي طَياتها روايتا العنكبوت ورجل تحت الصفر. شاهدت خلال مسيرتي العديدَ من الأزهار في ذلك الجانب الشرقي والذي كنت أحسِبه مهجورًا، فهناك زهورٌ ليوسف عز الدين عيسى ومُحمد الحديدي وحُسين قدري ورؤوف وصفي وراجي عنايت وهي مجموعةٌ من الزهور ذاتُ الزيوت العطرية الخلابة ، كلٌ منها بعطر مستقل ومذاقٍ أنفيّ مختلف.

جلست أستريح، افترشت حشائش الأرض، أسندت ظهرى على جذع شجرةِ

صفصاف وارفة ، أغمضت عينيّ ، تسللت رائحة الزهور العطرية لأنفى ومعها تسللت الأفكار. أدب الخيال العلمي هذا المزيجُ الساحر من العلم والأدب أضاف لي كطبيبً سَعةَ الأفق ، والقدرةَ على التفكير من خارج الصندوق، فالأدبُ يضيف للعالمِ والطبيب الكثيرَ، فسَعة الأفق و التفكير الابتكارى مطلوبان بشدة في تشخيص وعلاج الأمراض غير التقليدية وتلك المستعصية ، فكيف يمكن للطبيب أن يجابه المجهول من الأمراض ويتغلبَ عليها دون أن يتمتعَ بأفقٍ واسعٍ وخيالٍ خصب. أما كأديب فقد أضاف لي أدبُ الخيالِ العلمي الدقةَ و الإتقان والحبكة، فالحبكةُ الرِوائية والخطُ الزمني وتصميمُ البيئة المكانية والزمنية وتحليلُ الشخصيات كلها تحتاج إلى دقةٍ وإتقانٍ جنبًا إلى جنب مع الخيالِ والإبداع.

أعجبنى تعريفُ الأستاذ يوسُف الشاروني لأدب الخيال العلمي على أنه نوعٌ من المصالحة بين الأدب والعلم اللذين يعتقد كثيرون أن هناك تعارضًا بينهما, وهو تعبيرٌ عن أحلام البشرية ومخاوفها من آثار التقدمِ العلمي. اعترض على هذا التعريف الزميل الناقد حمادة هزاع فهو يرى أن العلمَ والأدب لم يكونا أبداً في حالة صراع حتى يحدث بينهما نوع من المصالحة. وأظن أن الحقيقة تكمن في أن هناك اتفاقًا واختلافًا بين وجهتي النظر. فكما يقول ستيفن كوفي إن هناك ما يسمى بانحراف أو تحرك النظرية (Paradigm Shift) وفيها ينظرُ الطرفان إلى نفس الموضوع من منظور مختلف، فيختلفان و لكن في الواقع كلاهما على صواب، فالاختلاف هنا ليس منطقيًا ولكنه سيكولوجي. وفي هذه الحالة، استشعر الأستاذ يوسف الشاروني بحكمِ خبرته الطويلة نبضَ التيار الأدبى العام، فلمح إنكاراً يكاد يكون عاماً لهذا النوع من الأدب، استقر في وُجدانه على هيئة صراعٍ، وإن لم يكن معلنًا. أما الأستاذ حمادة هزاع فلصغر سنه النسبي ولخلفيته العلمية القوية، فقد اعتمد معاييرَ علميةً بحتة في حكمه على هذا التعريف. وبقراءة هذا التحليل يتضحُ أنه في الواقع لا خلاف بين المنظورين لهذا الموضوع ، وهذا يؤدى إلى حدوث تحرك النظرية عند القارئ من وجود رأيين متعارضين إلى وجود رأيين من منظورين مختلفين دون تعارض.

أدب الخيال العلمي البحت نهاد شريف ورؤوف وصفى وأدب الخيال العلمي

الناعم وأدب الخيال العلمي للأطفال بواسطة سيد القماحى، ومسرح الخيال العلمي بواسطة محمد على عبد الهادي، وشعر الخيال العلمي بواسطة محمد محمد يوسف في كتاب إغواء الفراشة الإلكترونية وأدب الخيال العلمي الطبيّ حسام الزمبيلي في رواية أول حوار مع فيروس عاقل. كلها عطور مختلفة ظلت تداعب أنفي في غفوتي وتنعكس على كيمياء مخي بأحلام زاهية.

ولعل من أهم روايات الشرق التي تحولت لأعمال درامية هي رواية نهاد شريف الملحمية (قاهر الزمن) والتي تحولت لفيلم سنيمائيّ من بطولة جميل راتب ونور الشريف وكذلك ملحمتُه الأخرى (سكان العالم الثاني) والتي تحولت إلى عمل إذاعي تلقى شعبية نادرة بالنسبة لهذا النوع من الأدب في عالمنا العربي.

يقول الروائي العظيم ويليام فوكنر إن الروائي يحتاج إلى خصائصَ ثلاث(الخبرةُ ،الخَيَال والملاحظة) وهي خصائصُ نلاحظها وبشدة في كتابات نهاد شريف، ففي روايته سكان العالم الثاني والتي تخطت ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط، نجح نهاد شريف في رسم عالمٍ متماسكٍ متكاملٍ دقيقِ الملامح مستخدمًا خيالًا جامحًا ، سار به عَبر الرواية دون تناقضٍ مخل مستغلًا خبرته الواسعة ودقة ملاحظته. مما خرج بالرواية في النهاية إلى بر الأمان.

ولعلني أغبط نهاد شريف على شجاعته في الكتابة في فرع من الأدب، وفي وقت لم يكن له مريدوه في عالمنا العربي، بل وتخطى ذلك إلى الشك في وجود هذا الصنف من الأدب في عالمنا العربي. هذه المقاومة من الفكر العربى أخّرت هذا الصنفَ من الأدبِ في بلادنا عقودًا سبقنا بها العالم الغربي.

وفي المجال النقدي وضع دايفد الكسندر سميث قائمة لنقد وتقييم روايات أدب الخيال العلمي تشتمل على خمسة عشر نقطة تتضمنُ جوَ الرِواية وصناعةَ الأدب وحكايةَ القصة و خلقَ كونِ الرواية وعمارتِه و الخيال والتماسك والفرضيات وقوتها و الشخصيات وحافزها ومصداقيتها وأخيراً تخطيطُ الرواية بما فيها من إثارة وإدارة اقتصاد، ويحاط كل ذلك بلغة جذابة دقيقة. وتعتبر رواية سكان العالم الثاني تطبيقًا عمليا ودرسا نقديا لكُتّاب ونقاد أدب الخيال العلمي.

استفقت من غفوتى على لفحةِ هواءٍ باردة، فأدركت أن الشمس قد أوشكت على

المغيب، قمتُ مسرعًا وقد شَعُرتُ أن هناك الكثيرَ في ذلك الركن الشرقي من بستان أدب الخيال العلمي لأشاهده، أمضيت نصف ساعة وأنا أتجول مسرعاً، بين تلك الزهور الرائعة ، من سوريا طالب عُمران و لينا الكيلانى ومن تونس الهادي ثابت ومن السودان ومن العراق ومن لبنان ومن غيرها من البلاد العربية.

كِدت أن أستديرَ وأنصرفَ، فإذا بيمامةٍ مغردةٍ، تطير فوق رأسي بإلحاح، ثم تتجه إلى ركنٍ معينٍ. تجاهلتها ولكنها أصرت وعادت بإلحاحٍ عجيب، شعرت بأنها تريدني أن أتبعها. تبعتُها مترددًا. سرت ورائها في جَنبات ذلك الجانب الشرقي من البستان. وفجأة ظهرت أمامي مجموعةٌ من نباتات الأوركيديا الخلابة، وهي تفترش ركنًا خاصًا مميزًا، ويبدو أن هذا الركنَ قد كان مخفياً وكأنه رمزٌ للجندي المجهول. انتابتني مجموعةٌ مختلفةٌ من المشاعر في آنٍ واحد ، شعور بالجمال، وشعور بالحزن و شعور بالرهبة و الغموض ومشاعرُ كثيرةٌ قد يعجزُ القلمُ عن التعبير عنها. تعجبت وتساءلت كيف يمكن للمرء أن يشعر بكل هذه الأحاسيسِ في آنٍ واحدٍ. وما سر هذا الركن الخاص؟!.

اقتربت من زهرات الأوركيديا، فإذا بها تشكيلةٌ كبيرةٌ من الأشكالِ والألوان –فقد عُرفت الأوركيديا بأنها أقدم زهورِ الأرض وأكثرُها تنوعًا، وقد أسماها الصينيون -زهرة عطر الملوك- تمعنت النظر فيها فإذا بصورةٍ محببةٍ إليّ تطفو على تلك الزهيرات الجميلة الحزينة، هتفْت نهاد شريف..يا الهى كيف لى أن اغادر هذا البستان دون أن أزور ركنَ نهاد شريف، شكرًا يا يمامتى العزيزة.

كان ذلك الركنُ يتكون من سبعِ زهرات في المنتصف تمثل روايات نهاد شريف .. نهاد شريف الماسات الزيتونية، نهاد شريف رقم ٤ يأمركم، نهاد شريف سكان العالم الثاني، نهاد شريف آلة الزمن...

أحاطت بتلك المجموعة من الزهور مجموعةٌ أخرى تحمل صورةً لنهاد شريف مع جيل كامل من أدباء الخيال العلمي الذين تأثروا بفنه الجميل، ففيها شاهدت نهاد شريف و صلاح معاطي ،..نهاد شريف و حسام الزمبيلى،..نهاد شريف و نبيل فاروق،...نهاد شريف و أحمد خالد توفيق، .نهاد شريف و محمد على عبدالهادي،. نهاد شريف هو ملهمُ جيلٍ كاملٍ من أدباء هذا اللون من الأدب والذين أثروه

بمؤلفاتٍ متنوعة من رواية وقصة قصيرة ومسرح وشعرو أدب خيال علمي، نستطيع أن نصنف كتابات نهاد شريف على أنها خيال علمي بحت يتشابه معه صديقه الأستاذ رؤوف وصفي، أما أحمد خالد توفيق فقد كتب كثيرًا في خيال علمي فنتازيا، وأما محمد علي عبدالهادي وصلاح معاطي فقد كتبا في لون مسرح الخيال العلمى.

نهاد شريف لقد استحققتَ وبجدارةٍ لقبَ عميد أدب الخيال العلمي العربي، ففي خلال عشرات السنين خرج من عباءته عشراتُ الكُتاب المصريين والعرب الذين أثرَوا حياتنا الأدبية العربية بأنماطٍ مختلفةٍ من أدب الخيال العلمي، ولأول مرة في عالمنا العربيّ نستطيع أن نفخر بوجود أدبٍ ناضجٍ للخيال العلمي وقاعدةٍ عريضةٍ من الكُتّابِ والقراء.

في يوم ٥ يناير ٢٠١١، فقدت مِصرُ و الأمةُ العربية نهاد شريف. توفى نهاد شريف بعد صراع طويل مع المرض، عشرون يومًا فصلت نهاد شريف وثورة ٢٥ يناير في مِصر...ثورة الحرية والتحرر. عشرون يوماً فصلت بين قائد ثورة أدب الخيال العلمي في مصر وبين ثورةِ كلِ المصريين إلى الحرية.

نهاد شريف... يا زهرة الاوركيديا الحزينة ، لقد حاربت من أجل حبك الوحيد، ولقد تم تجاهُلك، ولكنك صمدت..... ثم انتصرت.